المشرق

من القصر الملكي الى دير الكرمل

بقلم حضرة الاب رفائيل نخله اليسوعي

كل الصفات الجميلة تزيد رونقاً متى زانت الملوك والامراء. لكنّ اجمّها فيهم كما في رعاياهم هي القداسة . والقداسة عبارة عن مجموع كل الفضائل بدرجة سامية تخرق دون الارتقاء اليها القوى البشرية المعتادة

هذا وان كانت قداسة الملوك والامراء قبل مجيء السيد المسيح على الارض من النوادر فقد اصبحت بفضل الدين الكاثوليكي من الامور الكثيرة الوقوع على توالي الاجيال. فمن قلّب صفحات تاريخ اوربّة مثلاً ولاسيما في القرون الوسطى قضى العجب من كثرة القديسين والقديسات الذين شرّفوا عروش بلادهم . فلو اردنا سَرْد اسمائهم لطال بنا البحث فنكتفي بذكر اثنين من اشهرهم وهما القديس اسطفان الاوّل ملك المجر من سنة ١٠٠٠ الى سنة ١٠٣٨ وهو الذي هدى شعبهُ الى النصرانيّة . وملك فرنسة لويس التاسع المتوفّى في تونس سنة ١٢٧٠ اثناء الحرب الصليبيّة الثامنة التي كان حامل لوائها الشريف

واذا احصينا في عداد الملوك والامراء القديسين ليس فقط الذين صرّحت الكنيسة بتقديسهم امام العالم الكاثوليكي اجمع بل ايضاً الذين امتازوا في عين ضمائرهم وخلّفهم بسموّ الفضائل اتّسع بنا المجال اتساعاً عجيباً وزاد عدد القديسين المتوّجين زيادة بالغة جداً . وهل ذهل القرّاء عن ملخّص سيرة السلطان اليسوعي المولى محمد العباس ابن سلطان فاس المولى عبد الملك وولي عهده ؟ (المشرق ١٩٢١ ص

٢٢٠—٢٢٥) أفليست حياة هذا الامير المترهب المتوفى سنة ١٦٦٧ مزدانةً باجلّ المناقب المسيحية بل موسومة بسمة القداسة المحضة ؟

ولدينا مثالٌ بديع كهذا وله مزيّة حداثة العهد ألّا وهو مثال اميرة دوقية لوكسمبرغ فقد تنازلت بمطلق اختيارها عن العرش ورذلت حطام العالم مع انها في ريعان الشباب ودَفنت جاهها السامي في احد اديار ايطالية . وقد شاهدت اوربة بل العمور بمنتهى الاعجاب هذا المشهد الرائع في العام الاخير

قصدنا في هذه المقالة ان نقدّم للقرّاء نموذجاً كالسابقين احتبكت فيه اشعة السناء الملكي وانوار القداسة العليا . وذلك بتلخيص سيرة الاميرة لويزة دي فرنس (Louise de France) كريمة ملك فرنسة لويس الخامس عشر التي كانت مثال المرأة الباسلة في كل ادوار حياتها المنقسمة بين قصر ابيها ودير الكرمليات في سان دني (S' Denis) من ضواحي باريس

١ الاميرة لويزة في القصر الملكي بفرسايل

من حقائق التاريخ الراهنة التي اجمع عليها الكتبة ان بلاط فرسايل اثناء مُلك لويس الخامس عشر كان مسرحاً لانواع الفجور والفواحش بل كان العامل نفسهُ مستسلماً للشهوات مشكِكاً شعبه النبيل واوروبة جمعاء بسوء سيرته وانهماكه في الملذّات . على انَّ الله قد متّع انظار الناس في تلك الردغة الخبيثة وبين تلك الاشواك باجمل الزهور المشرقة الاكمام الفاتحة البير اذ سطعت انوار القداسة وتمّ عرفها الشهي في ذلك القصر عينهِ ما بين القبائح والرذائل . فانهُ تعالى كان اصطفى لخدمتهِ وحبّهِ من بين مئات من الامراء المخالفين لاوامره المقدّسة نفراً من الانفس الشريفة النقيّة في مقدمتها الملكة المهلة من بعلها نعني ماري لَكْشِنسكا (Marie Leczinska) وبناتها واحداهنّ الاميرة لويزة دي فرنسة التي عليها مدار كلامنا

*

وُلدت هذه الاميرة في ١٨ تموز ١٧٣٧ وقد حباها المولى جمالاً طبيعياً يخبي الانظار ويشعّ ضياء على وجهها . ومن نعومة اظفارها بانت فيها مخائل النجابة والمروّة . وقد اثّرت فيها نموذجات اسمى الفضائل المسيحية الساطعة في شخص والدتها الخارة التقوى

فانطبعت على صفحات قلبها الرقيق كالاحرف المنحوتة على الرخام تكرُّ عليها الاعوام ولا تُنقص شيئاً من جلائها . وقد كتبت الاميرة بعدئذ في مذكراتها التي ستروي بعضها في هذه المقالة بالترجمة الحرفية ما يلي : « وكثيراً ما دُهشتُ من ان الملكة استطاعت التحرّر من تأثير أترابها ومُحيطها وسلوك خطّة القداسة في وسط القصر الملكي وتتميم واجبات مقامها السامي بأمانة كاملة »

فتلك الفضيلة رضعتها الاميرة مع الحليب فحادت منذ صباها عن طريق والدها الطاهر وقفّت على آثار امها القديسة في مهيَع الطهارة والبرّ . لنا شاهد على قولنا بعض المقاصد التي جعلتها دستوراً لحياتها في بلاط فرسايل الحافل بانواع الاخطار الادبيّة :

« سأتي تمنى من العُجب فهو سمّ المراتب العالية — ومن الكسل والتخمّل . . . ومن العيش الذي ربّما ساقني اليه مخيّلتي القلقة — ومن جملة امياله وقاني الله منها حتى اليوم . ينبغي ان أُظهر في سلوكي لمن يحيطون بي روح الترتيب على الدوام سواء كان في رياضات التقوى المعتادة او في الواجبات والاعمال العالمة المناسبة لحالتي . اريد ان اكون دائماً ليّنة المرد صبورة في المحن مستدّة لتضحية ارادتي الشخصيّة بشوشة متواضعة قولاً وسلوكاً . . . اريد ان اجعل مركزي بين اهل التقوى وان اتمم واجباتي الدينية دائماً بغاية الورع . . . اريد ان اجعل كل فرض يعرض لي الفرضَ الجوهري وعلى هذه القاعدة اكون دائمة لسدّ بتي نحو الله آناء الليل واطراف النهار ! »

لصوني ما اعجب واسمى تلك المقاصد في اميرة يزيّن لها عنفوان الشباب اتباع الاهواء ويمهّد لها سبل الشهوات ما تجدهُ حولها من النموذجات الباطلة ولكنها رأت قلب والدها وقلوب مطانته حائدةً عن جادّة الفضيلة فحدا بها ذلك المشهد المحزن الى تضحية نفسها في محبّة تعالى تكفيراً عن ذنوبهم وارضاء لجلاله . قالت في مذكراتها : « وا لمناه اني انوح لمام الله لذ لا ارى حولي سوى اشخاص لا تعبأ قلوبهم بالنعم الالهية فلا يطلبون غير الخيرات الارضية »

وان سألتَ من اي المناهل كانت تستقي الفتاة القديسة تلك الشهامة النادرة المثال في جنسها وسنّها ومُحيطها ؟ اجيب : من المناهل المسيحية المعروفة لدى الخاصّة والعامة الّا ان القليلين والسفاه يردونها بتواتر وثبات للارتواء بزُلالها المحيي للانفس

كانت الاميرة تتناول خبز الملائكة مراراً عديدة في كنيسة القصر . وفي بعض الاعياد كانت تتقدّم الى مائدة الخلاص امام جمهور الامراء والاشراف ليناهم البنيان

الصالح . وكثيراً ما كانت تُعدّ قلبها لاستقبال الضيف الالهي بواسطة الاعتراف والندامة الشديدة على اخفّ الشوائب والنقائص . ومن المؤكّد انها كانت مضطرمة العبادة لقلب يسوع الاقدس مع ان هذه العبادة المنتشرة اليوم في كل الاصقاع لم تكُدْ تتعدّى حينئذ دائرة نشأتها . قالت الاميرة في مذكّراتها »

« من قلب يسوع الجدير بالسجود تستقي كل النعم . ولو اننا طعّمنا هذا القلب الالهي فعلينا ان نرعمهُ بالثقة والندامة . فلْنَلجْ الى خبايا الباطنة من الجرح الذي اهتتهُ به ابدينا القاسية . لعمري ان هذا القلب لا يخفق خفقات الغضب والانتقام بل خفقات الحنو نحونا والرأفة بضعفنا والرغبة في خلاصنا . خفقات الجودة والسماحة والرحمة »

اما عبادة لويزة دي فرنس للعذراء المجيدة عليها السلام فكانت تضاهي السابقة باخلاصها وحرارتها . ولا غرو فان الاميرة كانت حفيدة الملك لويس الثالث عشر الذي كرّس مملكته تكريساً رسمياً علنياً دائماً لسلطانة السماء والارض . واليك بعض نفثات قلم الاميرة التقيّة في مخاطبة امها السماوية :

« يا امي الحنون ليت لي نصيباً في هبات ابنك الالهي وبركاته بمشاركة كل رعايا هذه المملكة الموكولة بنوع خاص اليك ومقاسمة أسرة جُلّ مجدها انها ملكٌ لك . كوني دائماً ايتها العذراء القديسة حامية وقدوتي في التصرّف بحالي مقامي . كوني سندي وملجأي في الاخطار كوني املي وحنوي في سعي لنيل السماء »

كانت الاميرة متعبّدة ايضاً للقديس ميخائيل رئيس الملائكة وشفيع فرنسة الرسمي ولأحد اعظم اجدادها القديس لويس التاسع ملك فرنسة وللقديس فرنسيس كسافاريوس مبشّر الهند واليابان بالانجيل الشريف وللقديسة ترازية لم الراهبات الكرمليات اللواتي كانت تنوي الانتظام في سلكهنّ كما سترى

ولم تكن تلك العبادات الشتى نحو القلب الاقدس وسيدتنا العذراء ونفر من القديسين قائمةً في مجرّد العواطف الرقيقة الخشوعية التي تلوح وتتوارى كنور الشمس في الشتاء او كالسحاب الجهام في سماء الصيف بل كانت مؤسسة على التأملات العميقة والروابط المتينة والاعتقادات الدينية الراسخة التي صيهات ان تمّحيها طوارئ الزمان . كفى شاهداً عليها ما خطّته يد الاميرة الفتاة بشأن الموت وهي لم تزل في ربيع الحياة ومجموحة العزّ . قالت ونعم القول الرائع :

« ان شرف المجد وسموّ المقام والعزّ والفخار والامتيازات . كل ذلك سوف يشعد عني في ساعتي الاخيرة . ولن يبقى لي غير يسوع المصلوب فأجد كلّ ثروتي في جروحهِ المقدسة . سأرنو اليها رُنوّ الثقة وأقبّلها الف مرّة بل سأختفي فيها لأحمي نفسي ضدّ العدل الالهي واقرأ فيها كل ما عليّ ان ارجوه من رحمة البارئ »

ولم تكن تلك القداسة السامية لتدل على محيّا الاميرة نقاباً كثيفاً من البأس او الحزن او الجهومة وتميل بها الى حب الخلوة المفرط . فبعكس ذلك كانت الفتاة التقيّة تأخذ بطيبة خاطر نصيبها من كل اعياد قصر ڤرسايل واحتفالاته بل وذات ملاهيهِ . كانت تشارك ابويها واخاها واخواتها وسائر الامراء والمقربين في المآدب الفاخرة وملاذّ الصيد والالعاب الرياضيّة فتحضر كلًّا منها بالملابس اللائقة للمقام وتفتن جلساءها بطلاقة محيّاها وفكاهة حديثها . فقد عرفت بعقلها المتوقد ذكاء ان كل هذه الامور عاريةٌ في حدّ ذاتها عن ادنى خطيئة بل انه يمكن تقديسها وتقديمها لله بمجرّد توجيهها الى خدمته وإنعاشها بحبّهِ عزّ وجلّ . وبعبارة موجزة كانت قد ادركت غزارة المعنى المكنون في آية مار بولس المروفة : « التقوى مفيدة لكل شيْ »

ولم تمنع أبّهة القصر الملكي وكثرة ملاهيهِ تلك الفتاة الهائمة في حبّ يسوع المصلوب من ممارسة التقشفات الصارمة تحت ستر الخفاء . فكان من عوائدها تناوُل ما لا تحبّه من المآكل اكثر من غيره وعدم ايقاد النار في حجرتها في أوان البرد القارس والتسلّط على تفورها من رائحة شموع ذلك العهد المصنوعة من شحم الغنم وكانت اوانئذ الواسطة المعتادة للاستنارة حتى في بلاط اعظم الملوك . ولم تكتفِ الاميرة القديسة بكل تلك الآلام الاختيارية بل كانت افترضت على نفسها تلاوة الفرض الكنسي برمّته كل يوم كشأن الكهنة والرهبان . وكانت تلبس على جسمها مباشرةً تحت الثياب الفاخرة الناعمة قميصاً خشناً من الصوف الغليظ . بل كثيراً ما كانت تلبس المسح نفسهُ وتجلد جسدها لقهر جماحهِ وإخضاعهِ بالكلية للروح

فلا بدع ان قد عطف السيد المسيح من اعالي سمائهِ نحو تلك الفتاة المحلاة على ضعف جنسها وفساد محيطها بقوّة الأبطال وطهارة الملائكة . فأحبها حبًّا خاصًّا واختارها عروساً لنفسه طالباً منها تضحية المال والجاه وكل الافراح العالمية وتكريس حياتها لمجرّد حبّهِ وخدمته في رهبنةٍ تُعَدّ اشدّ الرهبنات بشظفاً

٢ الدعوة الرهبانية ودخول الاميرة في دير الكرمل

سمعت الاميرة لويزة دعوة السيد المسيح الاولى الى التجرُّد الكامل في ٧ تشرين الاول ١٧٥١ وهي ابنة اربع عشرة سنة لا غير . وكان ذلك يوم رافقت والدتها الملكة الى دير الكرمليات في باريس لحضور ترهب الكونتاس دي رُوپلموند (de Rupelmonde) وهي احدى السيدات الشريفات في قصر ڤرسايل . فكان لهذا المشهد شديد الوقع في نفس الفتاة الورعة . بل نوّت منذ ذاك الحين ان تتبع الكونتاس في الدير باقرب وقت قصدها عن ذلك العزم رئيسُ الاساقفة دي بومون المشهور بقداسته وحكمته اشار عليها بتأجيل ترهُّبها لئلا يشقّ هذا الفراق على العائلة الملكية وقد خطفت منها يدُ المنية في السنين الاخيرة اعضاء كثيرين كاخيها ولي العهد وجدّها استانسلاس ملك پولونية

فانقادت لويزة لنصيحة الحبر الجليل ومع انها شديدة النفور من الحياة العالمية صبرت عليها فوق ثماني عشرة سنة الى ان يسّرت لها العناية الالهية تتميم مقصدها الشريف . واذا اعتبر القارئ شدّة هُيامها بسيدها يسوع المسيح واضطرام رغبتها في الانقطاع الكلي الى خدمته لاح له كالشمس في الضحى ان ذلك الانتظار الطويل كان من اثقل المِحَن لها وانه اجلى شاهد على قوة ارادتها وثبات عزمها مع ما لقيتهُ من ضروب العوائق . وما سطعت فيها تلك المناقب النادرة المثال الّا لكونها وزنت دعوتها الرهبانية بميزان الفطنة والتروّي وتيقّنت ان هذا المشروع جديرٌ باهتمامها وقد اوردت الاميرة في مذكراتها دواعي ترهُّبها فقالت :

« انّ ما يحثّني على الترهُّب — فضلًا عن الوفاء عن خطاياي وذكر ما قاساهُ السيد المسيح لخلاصنا — التكفيرُ عن الخطايا ما لا مناص منهُ في الناجية او الآجلة . والحال ان هذا التكفير اوعرُ مسلكًا في الرفاهية ولاسيما لمن هو مولع بالنعم مثلي — ويدفعني عليه ايضاً تذكار مثل المسيح عن الجَمَل الذي يمر من خرم الابرة على قط اسهل من ان يدخل الغنيُّ في ملكوت السموات — ثم فريضة التصدُّق على الفقراء التي يأمرنا بها الله لنبذل لهم كل فضالتنا . وفضائلي واسعة للغاية — واخيرًا رغبتي في اقتناء الله عز وجلّ الى ابد الابدين والتمتُّع بالتاج الذي اعدّهُ لي في سمائهِ »

تزيد على هذه الغايات السامية ان كريمة الملك لويس الخامس عشر نوّت ايضاً وبنوع خاص في ترهبها التكفير عن آثام والدها العزيز المنهمك اوانئذٍ في ملاذّ

الشهوات وتضحية نفسها في سبيل خلاصه الابدي . ولنا برهان اكيد على ذلك في مذكراتها حيث قالت :

« أن اكون راهبة كرملية وان يُصبح والدي منقطعاً بكليته الى الله هذا ما يقدر المولى على انجازه بل هذا ما سوف ينجزه بنعمته . آه يا لبتي اموت كرملية فاترك عائلتي جمعاء على طريق السماء ! ولي الرجاء انّ الملك اذا وقف على مقصدي سيرضى به . وهل يستطيع مشاهدة تنفيذه بدون ان يُجذَب الى الله فيتّجه اليه بنوع كامل ؟ »

ولا غرو ان الاميرة التقية قد وقفت حياتها على خلاص والدها وضحّت عزّها وصباها لانهاضه من وهدة النكبات . وأما حانت وفاة امها البارّة في تلك الاثناء خاطبتها هي واخواتها قبل تسليم الروح بهذه الكلمات الجميلة المؤثرة : « يا بُنَيّاتي احببنّ الملك والدكنّ . ولأني مفارقةٌ له استودعه اياكن . فأحببنَهُ كما ثبتُّ انا على حبّهِ بل احببنَهُ في الضرّاء اكثر مما في السرّاء . »

توالت على لويزة ثماني عشر سنة في الانتظار المؤلم بدون ان يغشل عزمها او تحيد عنهُ البتّة وقد ظهر الامر خصوصاً لمّا ناقت امبراطورة النمسة ماري تيرازية الشهيرة ان تعقد قِراناً بين ابنها الرابع الأرشيدوق مكسيليان والاميرة لويزة فأوفدت الاميرَ فون كونِتس (von Kaunitz) الى قصر ڤرسايل للسعي في هذه المهمّة فرفضت الاميرة هذا الاقتراح رفضاً باتاً . ثمّ بلغ بعد ذلك الارشيدوق المذكور اعتزال لويزة بالوصانيّة فجرى هو ايضاً على مثالها وصار فيما بعد رئيس اساقفة كولونية في المانية

ولما كانت السنة ١٧٧٠ رأى السيد دي برمون السابق الذكر انهُ لم يَعُد من مانع لاتمام لويزة قصدها وانّ السيّد المسيح مهّد لعروسه الطرق المؤدّية الى دير الكرمل المحبوب . ففي ٢ شباط مثلَ بين يدي الملك وأطلعهُ على عزم ابنته لويزة التي لم تفاتح بشأنه شخصاً سواهُ مدّة الثماني عشرة سنة وذلك من الغرابة بمكان في تلك الفتاة المبتلاة بانواع البلايا . فلمّا طرق هذا الخبر مسامع لويس الخامس عشر سكب الدموع السخينة مدراراً وأجّل جوابه على طلب ابنته العزيزة اسبوعين . ولمّا انقضيا خطّ لها هذه الاسطر البديعة التي يليق بكل والد ان يكتب مثلها في مثل تلك الظروف :

« ان كان ترهُّبك يا بنيّتي الحبيبة لوجه الله فقط فلا استطيع مقاومة ارادته وعزمك ولا ريب انكِ امعنتِ افكركِ في امرك اثناء ثماني عشرة سنة مرّت على انتظاركِ . فالحالة هذه فلا

اطلب منك شيئاً غير ذلك . . . ضحيتي ثوريّة أنا ضحيتك فاختياريّة والمولى سيخوّلك القوّة اللازمة لحياتك الجديدة حيث لا سبيل الى التقهقر بعد دخولك فيها . أعانقك يا ابنتي العزيزة بحبّ صادر من صميم الفؤاد وامنحك بركتي » من قصر فرسايل ١٦ شباط ١٧٧٠

والدك لويس

فاهتزّ فؤاد الاميرة تهلّلاً عند قراءة هذه الرسالة الطافحة بأرقّ العواطف الوالدية المقرونة بالاستسلام المطلق لارادة الله وبادرت الى تتميم تلك الارادة المقدسة فدخلت دير الكرمليّات في سان دني من ضواحي باريس في تاريخ ١١ نيسان ١٧٧٠

حدّث عن دهشة اولئك الراهبات ارتعتد ولا حرج فانهُ لم يدُرْ على خَلَدهنّ ان ابنة ملك فرنسة التي قُدّرت نفقاتها الشخصيّة السنوية بمليون فرنك تتنازل وتعيش بينهن حتى الممات عيشة الضَّنك والشظف بالعفّة والطاعة والفقر في رهبانيّة شهيرة بتقشّفاتها فلم ترضَ رئيسة الدير بقَبولها الى أن تأكدت ان دعوتها من الله وانها ثبتت على عزمها الصالح ثماني عشرة سنة مع ما احاق بها من الاخطار واخيراً انّ الملك اذن لها في الترهب

كان لدخول الاميرة لويزة في دير الكرمل رنّةُ إعجاب وأسف في كل اصقاع فرنسة بل في كل الممالك الاوربية . وفي غد ذلك اليوم العظيم انبأ لويس الخامس عشر سفراءه لدى الدول الاجنبية بهذا الحادث الجلل كما جرت العادة عند مولد او زواج او وفاة احد اعضاء العائلة الملكية . وبقي ترهّب الاميرة مدةً طويلة احدوثة العامّة والخاصّة وكل من سمع به قضى العجب من شهامة الاميرة وطوّ نفسها وماضي عزمها وشديد زهدها في خيرات الفانية بعد ان رتعت نحو ثلاثة وثلاثين عاماً في بحبوحة العزّ والرفاهية

وحين بلغ هذا الخبر المُفرح مسمَعي الحبر الاعظم كليمنضُس الرابع عشر ارسل رسمهُ وبركتهُ الخاصّة الى الاميرة المترهّبة على يد سفيره في باريس وتقدّم اليه ان يحضر إبرازَ نذورها . ثم طلب صورتها من الملك والدها وكتب اليها ما يلي : « اننا أمرنا بتكثير نسخ صورتك الكريمة لكي نُطلع لكلّ اللاّ سامي فضيلتك فيُعجَبوا بهذا النموذج الجدير بالاقتفاء »

الحق يقال لم تكن لويزة اوّل من ترهّب من نساء العائلة الملكية الفرنسوية بل

قد سبقها في هذا الميدان الملكة رادغُندة المتوفّاة سنة ٥٨٧ وقد اعلنت الكنيسة قداستها — والقديسة بِرْتِلْدة زوجة كارلوس الثاني († ٦٨٥) وبَرْتُرودة حفيدة العاهل العظيم شرلمان — والقديسة ايزابلّة اخت القديس لويس التاسع († ١٢٧٠) — والقديسة جانّ دِفْرَنس كريمة لويس الحادي عشر منشئة راهبات البشارة († ١٤٠٥) — وحنّة اخت لويس الثاني عشر . كل اولئك الملكات والاميرات زهدن في اُبّهة المُلك او الامارة وانقطعن لخدمة الله في الاديار . بيد ان بنت لويس الخامس عشر هي الاولى التي تَرهّبت عند الكرمليّات وهذه الرهبنة في غاية الصرامة والتقشف كما لا يخفى (١

في ١٠ ايلول ١٧٧٠ جرى احتفال باهر بمناسبة اتّشاح الاميرة لويزة بالثوب الرهباني بعد ستة اشهر قضتها بالامتحان في الدير بملابسها العاليّة . وكان قد التأم اوانئذ في باريس مجمع اساقفة فرنسة فارادوا كلهم حضور هذه الحفلة المؤثرة . اما الملك فانه امر بتزيين كنيسة الراهبات بافخر الزينة مما في قصره وارسل ثلاثين من ضاربي الآلات الموسيقية في ترسايل ليعزفوا هناك باجمل الاناشيد الدينية . وكان احد اديرة الكرمليات يحفظ كذخيرة ثمينة رداء للقديسة تِرازية مُصلحة رهبنتهنّ فارسلته الى سان دني لتتبرّك به بنت لويس الخامس عشر في ذلك اليوم الجليل . اما الاميرة فقد لبست احد ثيابها الملكية الفاخرة المزركش بأزهار من الفضة وبعض اجزائه منسوج بخيط من الذهب . وكان شعرها وعنقها وذراعاها محلّاة بابدع الجواهر وقد احاط بها كل سيّدات بطانتها الشريفات وهي في قصر أبيها . وكنيسة دير الكرمل غصّت بجمهور الحاضرين من اساقفة واشراف وفي مقدّمتهم اعضاء العائلة الملكيّة . فالقى السيد دي لاريشيار اسقف طروى خطاباً في موضوع هذا الاحتفال المهيب . ثم تلا سفير البابا في باريس الصلوات الاحتفاليّة وطرح على الاميرة الاسئلة المعتادة بخصوص

---

١) ستّين سنة قبل ترهّب الاميرة لويزة تُوفيت راهبة كرمليّة اخرى طائرة الصيت تعني بها تلك التي كانت في العالم الدوقة دي لا ڤليار (de la Vallière) ومشوقة لويس الرابع عشر. فبعد ان كانت حجر عثرة لفرنسة بتهتّكها ادهشت المنافقين حيث كفّرت ستاً وثلاثين سنة من آثام صباها في دير الكرمليّات بلبس المسح وجلد نفسها وممارسة غير ذلك من انواع التقشفات

دعوتها والواجبات الثقيلة المترتبة عليها في رهبنة الكرمل فاجابت راضية باتمامها

وبعد ذلك خرجت الكرملية الحديثة قُصَّ شعرُها الطويل الجميل وخلعت ثوبها الفاخر وكلَّ حُلاها الرائعة فدخلت ثانية الى الكنيسة في الملبس الرهباني المنسوج من صوف غليظ والحاضرون في صمت وخشوع يأخذان بمجامع القلوب . اما شديد تأثيرهم حين شاهدوا التغيير الكلي في ازياء ابنة الملك فانَّهُ بلغ المنتهى ولم يتمالك الذين كانوا حبسوا دموعهم الى تلك الساعة من ذرفها مدرارًا فكان البكاء شاملًا لكل معاييني هذا المشهد العجيب . ثم تناولت الاميرة من احدى الراهبات وهي في الكنيسة زُنارًا من النحاس وثوب العذراء والرداء الابيض والشام الابيض المتحدر الى منتصف وجهها . ولما تمت ازياؤها الجديدة الفقيرة استلقت على صدرها فوق الحضيض ومدّت ذراعيها على شكل صليب وبقيت هكذا اثناء تلاوة بعض الصلوات . ثم نضحتها رئيسة الدير بالماء المقدس فانتصبت وودّعت اقاربها الوداع الاخير

في ذلك اليوم الجليل قطعت بنت لويس الخامس عشر كل علائقها غير الضرورية مع القصر الملكي والعالم قطعًا كاملًا نهائيًا وخطت في سبيل التجرد الكلي ووقف النفس على خدمة الله تلك الخطوة الرائعة التي لا رجوع الى الوراء من بعدها . ولا شك انها ترنمت في مساء ذلك النهار السعيد بالنشيد الروحي الذي غنته قبل بضعة اشهر في اوائل توهبها واليك بعض فقراته الفتّانة :

« ايُّ شكرٍ أسديك اياه يا الهي لكونك اتيتَ بي الى دارك المقدسة وامام مذابحك ! هنا سأقضي ايامي من الآن فصاعدًا . هنا ساسكن الى الساعة الاخيرة من حياتي . فما اعظم سعادتي ! وهيهات ان يبلغ شكري ما تستحقُّ يا مولاي اذا قدمتُ لك حياتي كلها وانا تحت نير القانون المقدس الذي اعتنقتهُ ؟ لماذا الاسف على ما هجرتُهُ ؟ انهُ لا شيءَ نسبةً الى ما اقتنيتُه يا الهي ويا كل شيءٍ لي . من الآن سيصبح الفقر ثروتي التي انال بها ملكوتك الابدي . وهل من مقايسة بين ايام قليلة مقضية في التقشف وعبد لا نهاية له ؟ أجل يا يسوعي اني اعتنق صليبك من صميم الفؤاد . ليتني لا انفصل عنه ابدًا ! هبني نعمتك يا مولاي لاكون ضحيتك . يا يسوع ما احلى هذا اللقب ! ارى نفسي مشرّفةً بكوني هجرت اباطيل العالم حتى أدعى ضحيتك »

وليست هذه اقوالًا منمّقة وعواطف حارّة ليس الّا فانّ الاميرة لويزة اخرجتها الى حيّز العمل بعزم لا يني طول السبع عشرة سنة التي قضتها في دير سان دني . وقد بقي علينا القاء نظرة سريعة على هذا الدور الهامّ والاخير من تلك الحياة المزدانة باسمى الفضائل

٣ . الاميرة الراهبة في دير الكرمليات

ان اردنا امعان النظر في قداسة تلك الحياة الرهبانية فلا مندوحة من الاحاطة باطرافها واستقراء بعض اوجهها العديدة ولذلك قسمنا هذا الفصل الى ابواب موجزة

﴿ اقلاية الاميرة في الدير ﴾ لم تختلف البتة عما لأخواتها الكرمليات . كان اثاثها كرسياً ومقعداً صغيراً من الخشب ينوب مناب رفّ للكتب التقوية ثم ظرفاً للماء المقدّس وصليباً وثلاث صور على ورق وشمعداناً وقلّة ماء ومكنسة وساعة رملية وفراش الفقراء . تلك كانت امتعة الاخت تريزه — وهو اسمها الجديد في الرهبانية — بعد ان عاشت ثلاثة وثلاثين عاماً في قصر ملكي يغلب قصور الملوك رونقاً وتنعماً وجمالاً ! كانت بنت لويس الخامس عشر لا ترقد قبل الساعة الحادية عشرة مساء فتضطجع على فراش من القش ممدود فوق ثلاثة الواح خشبية ولا غطاء لها سوى مقرمة من الصوف الغليظ . فكثيراً ما كانت عيناها لا تكتحل غمضاً على ذلك المضجع الخشن وربما صدم رأسها الحائط بعنف في ليالي الارق . ثم تنهض من رقادها في الساعة الخامسة سحراً بعد ست ساعات راحة فقط . وكانت اختارت لنفسها احقر قلالي الدير واقلها نوراً ودفئاً فكأنها في الشتاء مثلجة وفي الصيف اتون . وكفى شاهداً على ذلك ما كتبته الاميرة في زمهرير الشتاء :

« ان الصقيع يصيبني في الشتاء فيخيّل لي في بعض الاحيان ان اصابعي اقطعت من يدي . . . كنت على وشك الموت لشدّة الزمهرير فلعمري أني لم اتألم ابداً اكثر مما تألمت هذا الشتاء . . . لكن هل انوح على ذلك كشأن الاطفال ؟ ألا يجب علينا ان نقدّم دائماً شيئاً من التضحيات للمولى ؟ »

اما الثياب الرهبانية فكانت خشنة كغطاء الفراش الآنف الذكر . وحيث عرفت الاميرة ذلك قبل ترهبها تذوّقت بحيلة ظريفة لاقتناء قميص غليظ لاحدى الكرمليات مدّعية انها تريد حفظها عندها كذخيرة مقدسة . فكانت تلبسه آونة بعد اخرى تحت الثياب الفاخرة الناعمة في قصر ڤرسايل وذلك لتعتاد خشونته قبل الترهّب ! ومع احتياطها هذا الغريب فانها تألمت كثيراً بادئ بدء من خشونة ملابس الكرمليات وحيث نسبت ذلك لتواضعها الى جماح طبعها المولع بالترف ارادت كبحهُ بلبس المسح مدّة فلما عاودت بعده الى لبس الصوف الاخشب ألفته ناعماً كالحرير !

لا يُتاح للكرمليَّة ان يكون لها في وقت ما اكثر من ثوب واحد . وبناء على ذلك لم تلبس الاميرة سوى ثلاثة ثياب طول السنين السبع عشرة التي قضتها في الدير . فكانت تداوم على لبس الواحد وتبالغ في ترقيعه الى ان يصير خلقاً فتحول اللياقة دون لبسه

(٢ ما كلها في الدير) في الغداء والعشاء كان يوضع امامها وامام كل من اخواتها الراهبات قصعةٌ ليس فيها غير ما كولات ايام القطاعة من بقول وأرز وأطعمة مصنوعة من الحليب وفي بعض الاحيان قليلٌ من السمك وذلك لانه اغلى من غيره . اما الفطور فكان من النوادر حيث يفرض قانون الرهبنة الصوم من ١٤ ايلول الى عيد الفصح بدون ادنى انقطاع ويتضح ان تلك المدة هي نحو ثلثي العام . اما الثلث الباقي فكان يسوغ فيه تناول كسرة خبز ليس الّا من فضلات الامس . فليتأمل القارئ كم شقّ هذا التقتير الشديد على ابنة ملك فرنسة المعتادة منذ تَرَف بنانها على افخر الموائد . زد على ذلك انها حين ترهبها كانت ضعيفة البنية مُصابة بتزيف الدم تكرهُ نفسُها كثيراً من تلك المآكل كالبيض واللبنيات والسمك فتعافها كأمرّ الادوية . لكنَّ محبَّة التألم من اجل يسوع غلبت على كراهيتها الشديدة فنصبت نفسها على أكل كل الاطعمة المقدَّمة لها بدون اظهار ادنى اشمئزاز وبدون التذرع باعتلال صحتها للحصول على المآكل المناسبة لذوقها

ولمَّا علمت الراهبات بعد سنين عديدة بفرط نفورها من البيض أردن اعفاءها منهُ وابدالهُ بغيره مما يلذُّ لها فاجابتهنَّ على الفور : « كلّا ثم كلّا . فاني حاربتُ ذوقي في هذا الامر مدَّة سبع سنين وآمل اني اكتسبت بعض الفوز من هذا الكفاح . فاذا مشيت الآن القهقرى فلا شك اني مغلوبة » . وقد ظهر تجرّدها واماتتها بمظهر اجمل من ذلك حين وجه اليها الحبر الاعظم على أثر ترهبها رسالةً ليعافيها من كل قوانين الرهبنة المعاكسة لصحتها فرفضت بكل الاحترام الواجب التمتُّع بهذه النعمة دون اكتراث لتزعزع مزاجها . وقد افضى بها فتور معيشتها على توالي السنين الى داء النقرس فهو ينتج عن فرط التنور كما يتولَّد من فرط المآكل الفاخرة وقد كان هذا السبب الاخير بدعاةً الى تسميته داء الملوك في ايّامنا . ومما كتبهُ في هذا الصدد الى الكردينال دي برنيس ما لفظهُ : « أجل ان النقرس كثيراً ما يصيب الكرمليّات

ويتسلط عليهن بسبب شظف عيشتهن فانه يؤثر في اجسامهن الضئيلة تأثير القصف على اهل العالم »

﴿ ٣ تواضعها وفرط نفورها من كل الامتيازات ﴾ من يوم هجرت بنت لويس الخامس عشر اباطيل العالم وضحّت مقامها الملكي فيه ننضت عن نفسها ادنى غبار الكبرياء . فكانت تنفر اشدّ النفور مما يُبديهِ نحوها اخواتها الكرمليات من مظاهر التعظيم والتبجيل نظراً الى شرف محتدها وهي من سلالة ملكية تعاقبَ اعضاؤها على عرش من اعظم عروش العالم مدة ثلاثة اجيال ونيف وتربّع غيرهم على ثلاثة عروش اوربيّة أخرى في الجيل السابع عشر . وقد افرغت ما لديها من الوسائل ليعدلنَ عن كل شارات اكرامهن الخاصّ لها

ومما كتبت في هذا الصدد : « ان الاخت ترازية لا تمتاز عن اية كرمليّة اخرى بسوى كونها ادنى الكل فضيلةً »

ومن الامور التي ما كانت تطيق احتمالها تسمية الراهبات لها باسم مادام (Madame) الذي كانت تُلقَّب بهِ في قصر ابيها وكان وقتئذٍ من اسمى القاب الشرف مختصاً في سلالة البوربون ببنات الملك وقرينة اخيه وبنات ولي العهد . فاستفدت وسمها لتنفي عنها تلك القسمة الشرفيّة . فلم تنل بغيتها الّا بعد شقّ النفس اذ لم تزل تُلحّ على رئيسة الدير في ضرورة مساواتها بسائر الكرمليّات حتى صدر الامر بذلك فنالت ظفراً مبيناً بعد طول الكفاح . ومن فكيه عتابها لبعض الواعظين على مدحهم لها شخصياً في مطلع العظات وفي خاتمتها قولها لهم : « ان عظاتكم تُذكرني بالسمك الذي لا يصلح منه للاكل سوى ما بين الرأس والذنب »

وقد ظهر ايضاً تواضع الاميرة المترهبة في احوال اخرى . منها انّ من مقتضيات قوانين الكرمليات ان لا يجلسن على الكراسي الّا في الكنيسة وغرفة الاكل . اما سائر الامكنة ولاسيما القلّاية فلا يسوغ لمن الجلوس فيها الّا على الحضيض . فرضيت بتلك الاماتة الشديدة بنت ملك فرنسة . ثم ان الراهبات كنّ يمكثن في الكنيسة ساعات طويلة في كثير من الايام وليس لمنْ سندٌ تُسند اليه اليدان او المرفقان وفي ذلك ما فيه من العناء الباهظ خصوصاً للاميرة المتادة على وفاهية قصر فرسايل . ومع ذلك فقد جارت اخواتها الكرمليات في هذا التقشف رغماً من ممانعتهنّ لها لكنها كانت

تشعر في هذه الحالة بخوَر قواهـا فكان يُغمى عليهـا حتى اضطرّت الى استخدام مَركع . وحيث لم يوجد في الدير أرسل اليها من قصر ابيهـا مركعٌ من خشب السنديان الثمين وعليه شعار العائلة الملكيّة . بيد ان الاخت ترازية لم تستعمله طويلاً حيث خجلت من ضعفهـا وترفها فاستعانت بنعمة الله وحاولت شيئـاً فشيئاً كبح جسمها فعوّدتهُ الركوع بدون سَنَد حتى فازت برغوبها . وقد حُفظ ذلك المركع بصفة ذخيرة نفيسة حتى يومنا هذا وكثيرًا ما يتقاطر الناس لمشاهدته

﴿ ٤ صلوات الاخت ترازية ﴾ كانت تقضي كبقية راهبات الدير سبع ساعات كل يوم في انواع الصلاة من حضور الذبيحة الالهية وتلاوة الفرض وممـارسة التأمل ومناجاة الله وزيارات القربان الاقدس وتلاوة الصلوات اللفظيّـة . وقد سطعت في شخصها منذ صباها العبادة الحارّة لسر القربان الجليل . وقـد روى الدوق دي لُوين (de Luynes) انها في اوائل حداثتها مرّت في عربتها الملكية بكنيسة القـديس روكس ورأت كاهنـاً خارجاً منها وحاملاً القربان ذاهباً به الى احد المحتضرين . فنزلت في الفور من عربتها وجثت على ركبتيها غير مبالية بوحل الطريق ساجدةً للاله المتلاشي في سرّ حبّه العجيب . فلا بدع ان قد وجدت بعدئذ في الدير سعادتها بالاعتراف مرّتين في الاسبوع والتناول يوميًّا وقضاء الساعات الطوال راكعةً امام بيت القربان . وقد خطّت في مذكراتها قولها :

«كل قوّة عروس السيد المسيح ناجمة عن التناول . فانه اقرب وآمن الطرق لهـا بل اقدر مُساوتها في وجه اعدائها . لعمري ان حضور الختن الالهي ينير ويطهّر الضمير ويشرح الصدر وينفي منهُ عَدْوى الحزن والوساوس الباطلة فيمهّد الطريق لتسلّط الحب والثقة وحدهما عليه »

ومعلوم انَّ الله كثيرًا ما يغمر عبيدهُ ذلك الوقت الطويل بالتعزيات الروحية اللذيذة ويمتّعها بسعادة الاختطافات التي تفوق على كل افراح العالم وسروره الباطل . لكن البارئ عزَّ وجلَّ لم يُرد ان ينعم على الاخت ترزة بتلك النعم التي لايقوم فيها جوهر القداسة المتوقفة على حب تعالى فوق كل شيء وبذل النفس والنفيس في سبيل الخضوع لاوامره ونواهيه . فقـد اقرّت هي نفسها بكونهـا محرومةً في الرياضات التقوية من عـذوبة التسليات السماوية فلا تصادف هناك سوى الجفاف الروحي في غالب الاحيان . ولا بدع في ذلك فهي تجربة طالما جرّب الله بها اعظم اوليائه بل

هو مأزق خرج ولج سيدنا يسوع المسيح ضيقهُ وظلمته اثناء صلاته في بستان الزيتون

﴿ ٥ بقية اعمال الاخت تريزة ﴾ خارجاً عن مواعيد الصلاة كانت الاميرة لا تكفّ عن العمل في ما يؤول الى مصلحة الدير وهي القائلة : «دعوتي قائمة في الصلاة والعمل فلو أخلدتُ الى البطالة ولو هنيهةً لعدمتُ جوهر الراهبة الكرمليّة» . والحالة هذه كانت دائبةً على الشغل آناء الليل واطراف النهار لا تستكف من اشق الاعمال وادناها كالخياطة البسيطة وخدمة المائدة وتهيئة المصابيح وتكنيس الدير والعناية بجُنَينته وحراسة البقرات ومَخض لبنها لاستخراج زبدته وغسل الثياب ونشرها للتجفيف وقطف الكرم في اوانه والمساعدة في المطبخ والقيام بالوفاهة الى غير ذلك مما اعتادته راهبات الاديرة

وقد امتازت الاخت تريزة بعنايتها الخاصة بالمريضات من اخواتها الراهبات فكانت تَعُودهنَّ بتواتر وترتّب مضاجعهن وتقدّم لهن بطيبة خاطر أوضع الخدم . وقد اتفق ان احدى الطيلات عافت دواءً كريهاً وأبت شربهُ فعند ذلك تناولت الاخت تريزة كاس المرارة ورشفت نصفه فاحمرّ وجه المريضة خجلاً من جُبنها وجرعت الباقي . وعالجت الاميرة القديسة قروح احدى رفيقاتها وضمّدتها مدة عامين كاملين ولم يعلم احد بذلك التفاني العجيب سوى العالم باسرار القلوب . ثم استأثرت بخدمة راهبة عمياء مثقلة بالعاهات بالغة من العمر احدى وتسعين سنة فكانت تغسل وجهها وتُلبسها ثيابها وتُطعمها الطعام بل تطيّب قروحها الكريهة وتقبّلها برأفة الام الرؤوم على اعزّ اولادها . تلك بعض الامثلة على ما انكبّت عليه مدة سبع عشرة سنة من اعمال الرحمة

وقد عُهدت اليها عدّة اعمال ذات شأن كالوكالة على املاك الدير وضبط مدخوله ونفقاته وتثقيف الراهبات المبتدئات ووقع عليها الاختيار لرئاسة الدير مرّتين المرّة الاولى ثلاثة اعوام بعد توهبها من ١٧٧٣ الى ١٧٧٦ والثانية من ١٧٨٦ الى وفاتها الواقعة في ١٧٨٧ . وقد قامت بكل هذه الاعباء الخطيرة بنشاط واهليّة يُقضى منهما العجب وذلك مع توعُّك صحتها وثقل وطأة بعض امراضها كالنقرس المذكور آنفاً . فأدّت لديرها خدماً خلّدت ذكرها وصيت فضائلها حتى يومنا هذا

﴿ ٦ اهتداء ابيها الملك لويس الخامس عشر بفضل صلواتها وتضحياتها ﴾ قد سبق لنا القول انّ من اخصّ الدواعي التي حملت الاميرة لويزة على التوهّب التامّ اهتداء

ابيها العزيز وعودتهُ الى سبيل الفضيلة والدين . وكان قد طفح كيل آثام والدها التعيس في السنة السابقة لدخولها الدير حيث استدعى الى قصر ڤرسايل احدى معشوقاتهِ مادام دو باري وقدّمها رسمياً لبطانتهِ وعلية اهل بلاطهِ

على انّ هذا الاب الحزون مع عيشتهِ الخلاعيّة كان يزور ابنتهُ العزيزة في ديرها من وقت الى آخر . وكان يأخذهُ العجب من سرورها وانشراح صدرها فقال لها يوماً : « لا ادري كيف انتِ سعيدة الى هذا الحدّ مع شظف معيشتكِ » فاجابته بسذاجة : « حقًّا يا ابتاه ان سعدي لا مزيد عليه . حياتي شاقّة بدون مراء لكنّ سَلْوتي عظيمة حين اذكر اني انا هنا لخلاص نفس الذين احبهم » فكان جوابها اوفر برهان على حب ابنتهِ لهُ وفهم انّ إقدامها على احتمال كل تقشفات الرهبنة الكرملية كان كفّارةً عن جرائمهِ واستمطارًا لرحمة الله عليه

وكانت تجيب مَن عاتبها على فرط إماتتها الاختياريّة بقولها والدموع مترقرقة على وجنتيها : « تأملي يا عزيزتي مصير والدي الملك ان ادركتهُ المنيّة في سوء حالتهِ وتذكري اني جئت الى هنا من اجل خلاصه وخلاصي على وجه المساواة واحكمي بعد ذلك هل استطيع ان اتعدّى حدود الاعتدال في سعيي وراء صالح نفسٍ احبُّها بهذا المقدار » فلله من محرقةٍ نفيسة صعد الى عرش العزّة الصمدانية عرفُ قُتارها وحظي عند الله بتمام القبول واليك بيان ذلك ببعض التفاصيل

بقي لويس الخامس عشر عبدًا لشهواتهِ معرضاً عن خدمتهِ تعالى وحفظ وصاياه الى اواخر حياته بحيث كادت ابنته الحزينة تقطع الامل من اهتدائه . وكان سابقاً قبل توبتها اذ حاول داميان الاثيم قتلهُ سنة ١٧٥٧ فكاد يُودي بحياته استدعى الكاهن من فوره تائباً لكنّ مقاصد العاصفة زالت قليلاً بعد ذلك يزوال خطر الموت فعاد الى حياته الذميمة السابقة

فلمّا كانت السنة ١٧٧٤ نحو اربعة اعوام بعد توهب ابنته أُصيب الملك بالجدري اصابةً شديدة ابعدت عنهُ كلّ اهل بطانته وفي مقدمتهم معشوقته مادام دو باري الآنفة الذكر فرارًا من العدوى . فلم يبق لخدمتهِ وتلطيف بَلْواه سوى بناتهِ الثلاث فلازمن فراشهُ صباحَ مساء دون ان يلتفتنَ الى مخافة بنيتهن واشارة الاطباء وشدة سريان هذا الداء . وقد توفي احدهم المسمى دي ليتوريار لانه فتح باب غرفة الملك

قليلاً للنظر الى العليل مدة دقيقتين ليس الا

اما بنت الملك الرابعة المترهبة فانها بقيت حينذاك ساجدةً في ديرها امام التربان الاقدس تذرف الدموع الحارّة وتفيض الصلوات الخاشعة من اجل خلاص ابيها الابدي. وكان سُعاة قصر ڤرسايل يأتونها كل ساعتين بالاخبار عن المريض في الليل والنهار وهي مُدمنة على التضرع والاسترحام عند مذبح حمل الله الحامل خطايا العالم. وقد ارسلت الى والدها المُدنف صليب نذورها الرهبانيَّة بَيد ان ذلك الخاطئ العظيم لم يفكر في امر الابديَّة وكان المقرَّبون اليه لا يكترثون لهذا الامر مطلقاً بل توعَّد الدوق دي ريشليو خوري ڤرسايل بالقائه من احدى نوافذ القصر على الحضيض ان تجاسر ونبَّه الملك على قبول الاسرار الاخيرة

على ان رئيس اساقفة باريس دي بومون والكردينال روش أيمون حظيا بمقابلة الملك في ٤ ايار أي شهرًا ويومين بعد اعتلاله فوفقهما البارئ الى اقناعه بضرورة إبعاد معشوقتهِ مادام دو باري ان اراد نيل الصفح عن آثامهِ قبل المثول امام الديَّان الرهيب. فامر باخراج الزانية من القصر في اليوم التالي وباحضار الكاهن فاعترف له بخطاياه. وفي يوم الجمعة الموافق ٦ ايار تناول الزاد الاخير وبناته جاثيات حول فراشهِ. ولمَّا رأى حُقّة القربان أزاح عن جسمهِ اللحاف وهمَّ بالسجود على مضجعه للاله المختفي تحت الاعراض السرّية واذ حاول الحضور منعهُ هتف قائلاً: « حين يشرّف الاله العظيم خليقةً حقيرة مثلي فأقلُّ ما ينبغي عليَّ ان استقبلهُ بالتبجيل ». وبعد مناولة الملك تلا الكردينال الذي ناوله جسد الرب التصريح الآتي بالنيابة عن المريض: « انَّ جلالة الملك ولو انه غير ملتزم بتأدية الحساب عن سلوكه لسوى ربّه فانه يجاهر بكونهِ نادماً على تشكيك رعاياه بسوء سيرته وعازماً على ان يقضي ما بقي من حياته لخير الديانة ورفاهية شعبه ». ولمَّا تلفظ الكردينال بلفظة « نادم » رفع لويس رأسهُ عن وسادتهِ هاتفاً: « أعِدْ سيّدي قراءة هذه الكلمة بصوت جهور » ويذكرنا هذا الحادثُ المؤثر آخر قول فاه به ابو جدّه المغفور له لويس الرابع عشر الباذخ المجد والمنيب الى ربّه بين آلام احتضارهِ البالغة: « أوَدّ لو اني اقاسي اكثر من ذلك ... فأقبل توبتي ايها الاله العظيم! » فكانت ندامة خلفه تصوحاً ايضاً حتى الرمق الاخير فلم يزل يبتهل الى المولى ويطلب الماء المقدَّس ويلثم صليب ابنتهِ الكرمليَّة في نزاعهِ

الهائل . الى ان لقي ربّهُ تائباً في ١٠ ايار ١٧٧٤

وفي غد وفاته كتب حفيدهُ ووريث تاجهِ لويس السادس عشر الى الاخت ترازية : « نِلنا وافر التعزية لِما اسبغهُ الله من النعم على والدكِ فقد فاضت روحهُ وهو قابض على الصليب يتلو بنفسهِ الصلوات» . فحدّث عن فرح تلك الابنة النبيلة التي ضحّت نفسها من اجل خلاص ابيها المصرّ على خطاياه فقضت السنين العديدة في الصلوات الحارّة والتقشفات الصارمة لنيل تلك النعم النفيسة حتى استجاب الله صلاتها

﴿ ٧ وفاة الاخت ترازية ﴾ عاشت بنت لويس الخامس عشر ثلاث عشرة سنة في سان دني بعد موت ابيها العزيز . ويُؤخذ عن اوثق المصادر انها قضت نحبها تسمّماً . وهاك بياناً موجزاً لذلك الامر الغريب . كان اعداء النظام الملكي في ذلك العهد ينسبون على غير صواب نفوذاً شديداً للراهبات الكرمليات في ادارة شؤون المملكة ولاسيما من بعد ترهّب الاميرة لويزة وارتقائها الى رئاسة ديرها . فهمّوا بقتلها غيلةً وانفذوا اليها احد مشايعيهم ليسلّمها حزمةً كُتب عليها « ذخائر مقدّسة » فوجدت في داخلها خصلة شعر نُثر عليها مسحوق ابيض . فتنشّقتهُ لتقف على ماهيتهِ وهي لا تدري انها تتنشق السمّ الزعاف وبقيت مرتابةً بامرهِ بضع ساعات حتّى رجحت انه سمٌّ ناقع اذ احسّت برهةً بعد استنشاقه ببعض الاضطراب في جسمها . ولم يمضِ قليلٌ حتى انتفخ بدنها بنوع هائل وشعرت بأحدّ الاوجاع فاستُدعي طبيب الدير الدكتور أورايلي (O'Reilly) ووصف لها علاج الفصاد لاخراج الدم المتسمم . فنُصدت ثم عاودت حياتها النشيطة البائسة التنسك لكنّ السمّ لم يزل يؤثر فيها فقطعت املها من الحياة كما اشعرت بذلك في كتاب ارسلتهُ في ٢١ ك ١ ١٧٨٧ الى الملك لويس السادس عشر كتبت على غلافهِ : « الى مولاي وابن اخي كي يُعطى له بعد موتي » وبعد رسالتها بيومين انتقلت الى رحمة مولاها في صباح ٢٣ كانون الاول ١٧٨٧ . وقد اقتبلت مشجبة المرضى والزاد الاخير في عشية ذلك اليوم ثم قالت للكاهن بتواضعها العجيب : « ارجوك ان تستغفر باسمي جماعة الراهبات من كل غمّ سبّبتهُ لهنّ بعدم ترتيب سلوكي وبجُبني وسائر عيوبي . » ومن آخر اقوالها ما حرفه : « كنت اظنّ ان الرحمان قد ابقى لي صلباناً عديدة فانظرنّ يا اخواتي كيف انتهت من فيض رحمته . اني واثقة بانه سيمنحني فردوسهُ ! فيا لعظم سعادتي ! لا لعمري ما كان في وسعي الاعتقاد ان الموت سعيدٌ جذا المقدار ! »

وقوّا بعد وفاتها ظهر مفعول السم ظهوراً جلياً فقد اسود وجهها سريعاً وتشوّه تشوّهاً عظيماً الجأ الراهبات الى عدم عرضها في كنيستهنّ مكشوفة الوجه وفقاً لجاري عادتهن عند موت احدى الرئيسات . فالتزمن وضع جثتها في التابوت مباشرةً وكأنّ الربّ لبّى دعوتها وحقّق دعاءها اذ وجدوا في مذكراتها ما حرفهُ :

«وحين افكر في ان جسمي سيُعرض للانظار بعد وفاتي اتوسل الى الله ان يشوّهه بحيث لا يميل احد الى النظر اليه او يدعو الغير الى نظره»

وكانت قُبيل انتقالها من الفانية الى الباقية قد أسرّت الى نفر من الكرمليات اخواتها امر السمّ الماصر لقصن حياتها في لمحة عين بيد انها الزمتهن ان يُقسمن بحفظ ذلك السرّ في طي الكتمان فبقي مكتوماً الى السنة ١٨٧٠ حيث صرّحن براقيّة الامر في نشرة لمنْ نَشرتها بمصادقة كثير من الاساقفة

ثمّ دُفنت الفقيدة الموقرة القديسة في نفس ديرها وحُفر على قبرها التأبين الجميل الآتي :

«هنا مرقد جثة امّنا المحترمة ترازية وهي لويزة ماري دي فرنس بنت الملك المسيحي للغاية لويس الخامس عشر ورئيسة هذا الدير — ان تضحيتها تُشرّف الدين وشجاعتها تبرهن على ايمانها وشرف عنصرها يزيد سمو تواضعها وغيرتها على حفظ القوانين . . .»

ولا يسعنا ختم سيرة الاخت ترازية بدون ذكر مدح رئيس اساقفة باريس لها في احدى عظاته اثناء الصوم الاربعيني بضعة اشهر بعد موتها . قال ذلك الخطيب المفوّه :

« ما بين الشرور المنهالة علينا من كل صوب يظهر ان الجودة الالهية هيأت لنا تزيةً في فضائل تلك العذراء الجليلة التي عرضت للعالم باسره نموذج تضحيتها الفائقة السحاء وقد ثبتت عليها حتى الرمق الاخير بزيةٍ وشهامة نفس عجيبتين بينا كانت اخواتها الجليلات يثبتنّ بمثالهن إمكان ممارسة الفضائل المسيحية حتى في بحبوحة ملاهي القصور وغوغائها . يا لله يا اخوتي الاعزاء، ما اجمل مشهد سليلة ملوك كثيرين بنت لويس الخامس عشر عمّة لويس السادس عشر الاميرة التي نشأت بين افخر الملاذّ في اسنى قصور العالم فاعتنقت بعد ذلك بزيد الفرح عار المسيح المقدّس ومارست باشدّ التدقيق كل واجبات احدى الرهبانيّات الاشدّ صرامةً في الكنيسة الكاثوليكية ! يا له مشهداً فتّانا اوقفنا على لويزة دي فرنس اذ كانت لا تمتاز عن رفيقاتها الّا بتواضع اشدّ فادركت بالتجرّد الكمال الانجيلي بقدر ما تستطيع البلوغ اليه نفسٌ في حالة النسمة»

حاشا لنا ان نزيد شيئاً على هذا التأبين الفصيح الصادر من رئيس اساقفة باريس قليلاً بعد وفاة الاخت ترازية . على انّ رائحة قداستها التي دعاها القديس بولس رائحة

المسيح الطيبة قد تعلّت حدود دير سان دني بل تخوم فرنسة على اتساع هذا القُطر . فانتشر نسيم سمعتها الحسنة في كل انحاء العالم ولاسيما في كل اقطار الكنيسة الكاثوليكية والدة القديسين ومهذّبتهم على توالي الاجيال . فعداً ذلك الصيت العجيب أولى الامر في رومة العظمى الى اجراء التحقيقات الدقيقة الطويلة بشأن سيرة خادمة الله . ولما اتضح بعد فحص المستندات العديدة واستنطاق الشهود الثقات سمو فضائلها واحدةً فواحدةً أعلن قداسة البابا بيوس التاسع هذه النتيجة في ١٤ حزيران سنة ١٨٧٣ ومنح الاخت ترازية الكرملية لقب مكرَّمةٍ وفقاً لعوائد الكنيسة في هذا الصدد

وقد استرنفت التحقيقات في عاصمة الكثلكة وقاعدة فرنسة بقصد ادراج بنت لويس الخامس عشر في سجلّ القديسين . فوَّب لله هذا اليوم السعيد ونفعنا بشفاعة أَمَته القديسة وكثّر من امثالها في العائلات الملكية والأُسر الشريفة بجيلنا هذا الشديد الاحتياج ليس فقط الى تعلم طرق الكمال المسيحي على يد المثقفين والمعرّفين والوعّاظ بل خصوصاً الى مشاهدتها متجسّمةً حيّة فائقةً في شخص القديسين

الموافقة بين متى ولوقا

في روايتهما

نسب يسوع المسيح

لحضرة الاب انطون صالحاني

انَّ من يطالع نسب السيّد المسيح كما ورد في انجيل القديس متى (١ : ١—١٦) متسلسلاً من ابرهيم الى داود الملك ومنهُ الى يوسف البتول رجل مريم العذراء المولود منها يسوع المسيح . ثم يُقابلهُ بانجيل القديس لوقا (٣ : ٢٣—٣٨) حيث يرتقي نسب المسيح من يوسف البتول الى داود ومنهُ الى ابراهيم ثمَّ الآباء الى آدم ثمَّ الله خالقهِ يأخذه العجب لما يجده من الفرق بين النسبَين كليهما وهذا الفرق لا يوجد فقط في عدد الاجداد المذكورين فيهما لكن ايضاً في اختلاف اسماء كثير منهم